

التنافذة

للاستاذ محمود خيرت بك

تسبقاني إليها كأن بها قوة مغناطيسية
تجذبني نحوها . وكانت على ما عهدتها في
الصباح فتركتها إلى منزلي وأنا أفكر فيها
وقد بلغ من أمرى أنني كنت أغنى
كل يوم لو أن ليلتي لا تطول فأسارع إلى
الوقوف تحت تلك النافذة وأنا ذاهل مشرد
أشعر في ضباب خواطري بشيء مشوش

لا أتبين حدوده ولا أصل إلى فهم معناه
ما كانت تلك النافذة إلا إطاراً خلا من صورته ،
أو عيناً مفتوحة من عيون تلك الغرفة ، ولكنني
لا أستطيع أن أنفذ منها إلى قرارها
وكنت على عادتي أصر من أمامها فلا أسمع ولا
أحس شيئاً ، حتى طرق أذني ذات يوم صوت من
داخلها ناعم أغن فقلت لا ريب في أنه صوت ربة
الدار وقد امتلأ منه مسمي وأخذ يلعب بي كما تلعب
الراح بالشارب

وكثيراً ما كان وهمي يحاول أن يصورها لي ،
فأضحك على غفلي إذ قد تكون صورة ناطقة
بالدمامة وإن خدع صوتها السامع كما يخدعه صوت
الكروان . ولكنني أعود فأكذب خيالي لأن
القبج لا يتلازم معه جمال الصوت ، ولأن الأقدار
التي تخلق الجميلة قل أن تبخل عليها بمثل هذا الصوت
العذب الرحيم

وعند ذلك ينفسح لعيني أفق الخيال من جديد
فأراها معجزة من معجزات الحسن وآية من آيات
الفتنة ، وكأنني أنظر إلي عينيها وخديها وقدها فلا
يصادفني إلا لحظ ساحر وورد ناضر وغصن متأود
مياد ، حتى كنت إذا صررت أمام دارها أكاد أم
باقتحام بابها لأملأ عيني منها وأضع حداً لها وجسني
التي كانت تريد في عذابني

... نعم يا صديقي كانت تلك النافذة موضع الداء
والدواء . وكنت وأنا متجه في الصباح إلى عملي
أجدها مقفلة فأسير قدماً لا تتحرك لها نفسي ولا
تأخذ كثيراً أو قليلاً من التفاني . وكان يستوى
عندي أن أجتاز الزقاق المظلة عليه أو أن أسلك
طريقاً آخر

وكثيراً ما كنت أسمع من إخواني أن في الحياة
قوة خفية تسوق الإنسان أحياناً إلى حيث لا يريد
أو تدفعه إلى عمل هو بعيد عن التفكير فيه ، فكنت
أنور عليهم وأحتد متعصباً لرأيي في أن الإنسان
بحواسه وعقله مسيطر على أعمال نفسه حر في
حركاته ؛ حتى إذا كان يوم تهيأت عنده للذهاب
إلى الديوان أخذت طريقتي إليه دون أن أجتاز ذلك
الزقاق . ولكنني بعد إذ تركته خافي بنحو أربعين
متراً انكفأت راجعاً وأنا أحس في أعماق نفسي
حافراً إلى العودة بغير أن أقوى على دفعه . وما كدت
أسلك الزقاق بعد ذلك حتى وجدت النافذة مفتوحة
وسمعت كأن بالغرفة حركة فوقفت أمامها لحظة ثم
استأنفت سيرى

وإذا كانت ساعات العمل بالديوان قد أنستني
تلك النافذة وما كان من أمر عودتي إليها رغماً مني ،
فإنني لما حان موعد الانصراف وجدت قدمي

صهرت تحت نافذتها شملتني بابتسامة أو ألفت إلى زهرة، أو أرسلت لي في الهواء قبلة فأذهب إلى عملي نشوان سعيداً

وكثيراً ما كنت أراها في الصباح بعد حلم نعمت بطيفها فيه حتى كأنني لم أستيقظ منه . وقد مضى على ذلك شهر وأنا أستقبل عند مطلع كل شروق شمس وجهها الصبوح تبعث في نفسي نشوة جديدة تزيد في ناري وتضاعف حرقتي فأعني لو أنني أصل معها إلى آخر كتاب الهوى الذي تبادل مطالعته كل صباح ، حتى إذا غلبني الوجد وخانني الجلد عوات على أن أضع بينها وبينى حداً بالزواج وكانت سنهما لا تتجاوز سبعة عشر ربيعاً ، فهي إذن لا تزال عذراء ، كما أنها لم تفتح قلبها لغيري وإلا كانت أهملتني وصدفت عني . فاستقر هذا الرأي في نفسي وأرجأت تنفيذه إلى الغد

وقطعت تلك الليلة مضطرباً أنقلب في فرائسي وأقلب ما فكرت فيه على كل وجهه إلا وجهاً واحداً هو : من عساها أن تكون ؟ ومن هم أهلها وعشيرتها ؟ نافرأ من محاولة البحث في ذلك . إذ ماذا يعني من نسبها مهما اتضع أو مالها مهما ارتفع وما أردتها إلا لذاتها : لجمالها وسحرها وفنتها وقد عولت عند الصباح على ألا أسلك ذلك الزقاق لأنفرغ إلى إعداد نفسي لتحقيق تلك الغاية ، وكذلك عند عودتي لداري . وبعد أن ارتحت في مضجعي قليلاً فقصدت منزلها ، وأنا أهتز من الفرح ببقاياها

ولكنني ما كدت أدنو منه حتى ألفت نافذتها مغلقة وعلى الأرض من تحتها ذلك الأصيل مطروحا مهشماً ، فانقبض صدري وأظلمت الدنيا في عيني . على

وبينما أنا ذات يوم أجتاز ذلك الزقاق سمعت حركة عند النافذة ، فما أن رفعت بصري إليها حتى خفق قلبي وساخت روحي لأنها كانت فوق ما تخيلت ؛ وكانت تسقى أصيصاً به غصن يحمل قرنفلاً ، فلما أبصرتني غلب عليها الحياء وحاولت أن تتراجع فاندفع الأصيل يهوى من فوق ولكني تلففته قبل أن يصل إلى الأرض . وبظهر أنها ارتاعت خشية أن يصيبني ، فلما رأيتني أحمله أسرع إلى الباب ومدت من فخوته ساعداً بضاً كالماج تتناوله وهي تقول : « كتر خيرك » . قالت لها : « بس كده ؟ » وعند ذلك برزت لي برأسها الجليل وناولتني قرنفلة قبلتها وشتمتها ، فأخذت تركّز في نظرات طويلة كلها فتنة وسحر ، وجسمها يرتجف وأنفاسها تتلاحق . ثم أسرعت رد الباب رويداً رويداً ولكنها عادت ففتحته وكنت لا أزال في مكاني حائراً ذليلاً فقالت لي : « كفاية كده » ، وهي تبتسم ثم ... اختفت ولقد أخذت مجلسي أمام مكتبي وأنا لا أشمر إلا بأنني في الزقاق أحرق في النافذة وأنلقف الأصيل ... ثم تلك القرنفلة وتلك الابتسامة العذبة وفيها كل أسباب الغبطة ومماني الرضى . على أنني انتبهت من حلمي والقرنفلة لا تزال بين أنامل فقربتها من عيني وفي أروبيها بدمي وأمطرها قبلي ، ثم أخذت أناملها وقد خيل إلي أنها فرع من ذلك الغصن اللدن الناعم يحمل إلى أرج أنفاسها . وبعد ذلك ينتقل بي تأملي إلى أنها زهرة لا تعمر أكثر من يوم . فهل ما بدأت أشعر به من إقبال الحظ لن يتجاوز هذا المدى ؟ أم أنها ستمنحني زهرة أخرى أشهى منها هي زهرة الحب ؟

أصبحت هذه الفتاة غرامى وشغلى ، وأنا كلما

هزة لا تلبث أن تتلاشى ، وقد حرمت تلك الأنامل
الرخصة التي كانت تقطفها وتقذف إلى بها ومن
خواطر الحب التي كانت تختلج في صدرها بسببي
عند كل حركة من تلك الحركات

أما عملي بالديوان فقد أهملته إهمالاً ولذلك
اعتزلته ، ولي من يساري ما يكفيني . وقد ورثت
عن أبوي نحو مائتي فدان من أجود الأرض بعزبة
النخل ، غير بستان واسع مكنتظ بمختلف الأشجار
الثمرة

ولعلك تذكر يا صديقي أنك يومئذ نصحتني
بذلك لأتولى شؤونها بنفسي ، ولأسترجع بالهواء
الطلق ومناظر الريف ما ولي من عافيتي على أثر تلك
الصدمة التي كتمت عنك سببها

ولكنكم حاولت بالعمل أن أنسى فأخفقت محاولتي .
ثم أنى ليلى النسيان والجرح الذي أصابني فادح لا
يندمل ، فأخذت قواي تنحل يوماً بعد يوم حتى
اصفر لوني وشحب وجهي وغارت عيناى وكاد
جلدى يلصق بعظمي

وعند ذلك فكرت عمتي في الكتابة إليك
لتسارع إلى الاتفاق مع طبيب قدير ينتقل إلى . فلما
فحصني صرح بأنه لا يجد علة لما لضيق . وساد بعد
ذلك صمت قطعته بقولي : إنى أعلم أن علتى لا يرجى
لها برء . فقال : أنت إذن تعرف علتك فلم لا تذكرها
فلعلى أوفى إلى شفائك أو على الأقل إلى درء خطر
هذا الضعف عنك . وعند ذلك عدت إلى صمتى ،
فاقترب منى وأخذ كفى بين يديه وهو يقول : لم
تكتمها عني . إن المحامين والأطباء قل أن ينجحوا
في عملهم مستقلين عما يعلمه أصحاب الحقوق والمرضى
من قصاصهم . على أن أسرارهم دائماً فى حرز مكين من
صدورهم وقد أقسموا على ذلك قبل مباشرة مهنتهم

أننى أخذت أطرق الباب طرفاً متوالياً فلم أظفر
بمجيئ ، وعند ذلك أقف مبهوراً حائراً أسائل نفسى
لم ألفت هكذا بهذا الأصبص ؟ وإذا كانت قد عزمت
على الرحيل فلم لم تنكشفنى به وأنا أصر أمام نافذتها
كل صباح ؟ ثم أقول لا بد أنها فوجئت بهذا السفر
وأنها انتظرتنى ، فلما لم ترى كماداتها لم تر إلا أن تاقى
بوعاء زهرها ليكون شاهداً على انتظارها وبأسها
وبينما أنا أطرق الباب أطلت عجوز من منزل
قريب وقالت : إن أهل هذا البيت انتقلوا منه . وعند
ذلك دار رأى وتصبب عبرتى ولا سيما عند ما
قالت لى إنها لا تعلم عنهم شيئاً لأنهم كانوا لا يختلطون
بأحد من جيرانهم . وهكذا تحطم قلبى كما تحطم هذا
الأصبص . وأخذت أرجع إلى تلك القوة الخفية
فأراها هي التي جعلتني أنكص على عقبي يوم صادفت
النافذة مفتوحة ، وهي التي جعلتني لأمر من تحتيها
فى صباح هذا اليوم فترحل بغير أن أودعها ، فهي
إذن التي أرادت بكل ذلك أن تسخر منى وتتسلل
على حساب ألى

وأخيراً جمعت حطام تلك الآنية وحملتة معى
إلى دارى

كنت أذهب بعد ذلك إلى عملى وأنا أسلك
هذا الزقاق لعل تلك النافذة تفتح يوماً ما مصراعها
لتضم بينها نظراتى . وكنت أتمنى لو أن عيني تثيان
من حفرتهما إلى مصراعها لتتنظرا من خلال أخشابها
أرض تلك الحجرة التي طالما نعمت بخطواتها

أما ذلك الأصبص المحطم فقد عنيت بصيانته فى
قطر كتيبى . وكنت دائماً أملأ منه عيني كأننى
أمام متحف يضم بقايا آنية قديمة ثمينة . على أننى
استبدلت به سواء وأخذت أتعهد تلك الزهرة التي
سقتها يداها . وكنت كلما انبثقت منها قرنفلة تمررنى

الذى أنت فيه جمالك تنسأني وقاما سداً بين
ذا كرتك وبينى

على أننى مع هذا سأضع لك نظاماً دقيقاً تتبعه
في طعامك وشرابك ورياضتك وأرجو أن تكون
عند حسن ظني من قيامك عليه واتباعه . ومع ذلك
فسأرسل إليك من الغد ممرضة في مستوصفى بل إنها
رئيسة ممرضاته ، وليست إلا أختي وستحمل إليك
تفصيل هذا النظام ، فأكرر رجائي ألا تعارضني
فيه . وعما قريب تعلم كيف أننى بفضل مساعدتها
سأردّ بأذن الله حياتك إليك من جديد . وعند ذلك
انصرف فأرسل إلى في صباح اليوم التالى بركة
حدد فيها موعد قيامها وساعة وصولها ، فأرسلت
بعض أتباعى لانتظارها

وبعد ثلثى ساعة طرق أذن صوت جلبة في
عرصة الدار فأدركت أنها أقبلت ، ولكن عمتى
أسرعت إلى وأخذت تضرب كفاً على كف وتقول :
كيف يا ولدى يرسل طبيبك بمثل هذه الممرضة ،
وهي أولى بالتمريض منك لأنها لا تكاد تخطو من
شدة ما هي فيه من الضعف والهزال ؟ وعند ذلك
دخلت وهي تتحامل على نفسها مستندة إلى أحد
الخدم حتى إذا وقفت على مقربة منى وحدثت في
سقطت مغشياً عليها فأمرعت نحوها ورفعت رأسها
بيدى فإذا بها ... تلك الصورة التى كانت ترين ذلك
الإطار القديم ...

أما الآن فالحمد لله على ما استرجعنا من العافية
وعلى ما كتب لنا من السمادة . وهامى ذى وأنا أخط
لك هذا إلى جانبي تنفذ نظراتي من عينيها إلى قلبها
الذى أصبح محراب حبي ، وما كانت من قبل لتنفذ
إلى حجرتها من تلك النافذة . محمود فبريت

وعند ذلك ظلت صامتة وقد تضرعت نفسها
وأنا لا أرتضى أن أتخذ من هذا السر الدفين مجازاً
إلى إجابته . ولكنه استمر في عتبه قائلاً : كيف
تصرّ على كتمان أمرى عني ؟ إننى الآن لم أعد
طبيبك ، فقد انتهت مهمتى معك فلعلك تكرمنى
باعتبارى أخاك لك أو صديقاً . ثم أعلم أننى لن أقوى
على العودة دون أن أقف على ما يعذبك لأن
ما أصبحت فيه من سوء الحال مما يحزننى ويحزّ في
قلبي . تكلم يا عزيزى ، تكلم بحق هذه الممة الطيبة
الرحيمة .

وعند ذلك فاضت نفسى بالشجون ، وانهمر من
عيني الدمع ، وأخذت أقص عليه ما رويته لك في
هذه السطور وأنا أجييه بأنى لا أعلم من أمرها
شيئاً لا اسمها ولا أسرته ولا مكانها

ومن الغريب أنه بعد أن سمع عنها هذا البيان
المبهم انبسطت أساريره وارتاحت نفسه . بل لقد
كان يخيّل إلى أنه يبتسم وهو يحاول ألا ألحظ
ذلك . ولما انتهت من حديثي قال : إن حادثتك هذه
عجيبة ، ومع ذلك فقد وقع ما يشبهها لكثيرين
أعرف منهم شابة جميلة كاد يعصف بحياتها الحزن .
ولكننى أقنعتها بالكف عن الجرى وراء أمل
لا فائدة منه ، وقد سمعت لأرشاوى فلم لا تضع
نفسك في موضعها يا سيدى وهي فتاة ضعيفة وأنت
شاب قوى ؟ ثم إن مثل هذا المرض النفساني وخيم
العاقبة على من لا يكون قوى الإرادة ماضى العزم .
وإنى لأعرف أن لك مذهباً ظالماً كنت تمتاز به
وتنصر له ، وهو أن لكل إنسان لو شاء سلطاناً
من نفسه على تصرفاته . وكثيراً ما كنت تحتج بهذا
المذهب على إخوانك ولى وإن كان الزمن واليأس